مصادر اللغة العربية وتاريخها

١ — في العهود العباسية

اللغة لسان الأمة الناطق والعناية بها ضرورية ، تستدعي بذل الجهد اللازم في سبيل تنظيمها وترتيبها بعرضها على الأنظار . والأخذ بها للاستفادة ولا تزال الأمم المتحضرة بالغة الذروة في إتقان التدوين وحسن العرض وادخال التجديد المتوالي بلا هوادة ولا تأخر بحيث اكتسبت وضعاً يكاد يكون ثابتاً ، وإن كانت لا تعرف هوادة ولا وقوفاً في طريق الاصلاح . وهذا هو الشأن العظيم في العناية .

وتعدّ من أهم فروع (الأدب العربي) ، ولها صفحة وافية من التاريخ لا يصح إغفالها بوجه . ولعل في تاريخها عبرة لمعرفة التطوّر ، والاتصال بعمل الأزمنة لتكاملها فقد بلغت في المعاجم الاهتمام العظيم ، والمؤلفات الخالدة الأخرى ، فكانت من أكبر الأدلة على هذه المكانة وقيمتها العلمية والأدبية بل إن إهمال ذلك جهل (بالمجرى التاريخي) وتضييع لعمل الأمة في عصور عديدة مما يفيدنا كثيراً ، وإضاعة للاصلاح بتحقيق المطالب التي أشغلت الأفكار مدة وأنتجت ثروة لغوية لا تقدر قيمتها فكان جمعها وعرضها للاستفادة ، وبأكمل وجه ومراعاة ما هي بحاجة اليه ... ضرورة لازمة قطعاً .

وليس لنا من المراجع المعروفة مما يسمى بـ (تاريخ اللغة العربية) فالوجود لا يسمن ولا يغني من جوع . فما هي مراجعنا أو مصادر بحثنا ؟ وهل حرمنا هذه الآثار لتكون من القلة بهذه المكانة ؟ أو هل ان الأمة لم تعمل بما يخلّد الثقافة اللغوية من آثار لترجع إليها ؟ وتستقي منها ؟

ذلك ما يدعو للإلتفات والأخذ به . ولعل غالب من بحث لم يأت من طريق التاريخ ، فهو المرجع المهم جداً الى هذه المعرفة ، والوسيلة للاتصال باللغة . وإذا كنا لم نستطع أن نعد تاريخاً أو تواريخ بهذا الاسم ، فقد رأينا مؤلفات عديدة صالحة أن تكون مراجع مهمة ، ومصادر قويمة للأخذ بهذا التاريخ وتدوينه . وبوسعنا أن نعد جملة منها ، بل مقداراً وافراً . والأدب العربي واللغة العربية لا يتوضح أمرهما إلا من هذه الطريقة . ولا تزال الأمم ماشية عليها .

وهذه ليست في موضوع واحد ليتيسر سرد مصادرها أو الاتيان بها جملة وإنما نرى مطالب عديدة استوعبت هذه المصادر ، فمنها ما يتعرض للنويين القائمين ومنها ما يتعرض للمؤلفات الخاصة باللغة ، ومنها ما يتناول مادة اللغة وتوالي ظهور الآثار فيها ، ولا شك ان المهم لنا أن نعين ما هو أكثر أهمية ، وأجل في المطالب العامة . ولا نغفل ان اللغة تشترك هي ومصادر الأدب في بعض وتفترق في البعض الآخر .

اللغويون ومصادر تاريخهم :

هؤلاء تكلم فيهم جماعة في (كتب الطبقات) . وغالب هؤلاء نحويون ، أو أدباء لم يفصلوا بين الواحد والآخر ، ولا أفردوا اللغة بموضوع خاص للتعريف برجالها ، وكان العرب في العهود العباسية تناولوا مطالب فيهم :

١) نزهة الألبا في طبقات الأدبا . لابن الأنباري . ولم يقصر في هذا الكتاب الكلام على الأدباء ، وإنما نرى فيه لغويين عديدين . واللازمة دعت للبحث ، وأكدت العلاقة ، والعرب لم يفرقوا بين النحوي ، واللغوي ، والأديب من جراء الاتصال المشهود ، وربما شمل (الأدب) الكل على خلاف ما نرى اليوم من أن الأدباء يفصلون اللغويين عن الأدباء ، ويقصرون الأدب على (المنظوم والمنثور) . والبحث في استخلاص اللغة من المنظوم والمنثور ، أو النحو منها لا يعد عملاً أدبياً . ومثلهم البليغ الذي يبحث بضروب البيان وهذا لا يعتبرونه أدبياً .

٢) معجم الأدباء . لياقوت الحموي . وهو مشهور معروف . وفي أيام الحموي وابن الأنباري ومن قبلهما ظهرت آثار عديدة جاء ذكرها في تواريخ لا تحصى . وكتاب المعجم هذا لم يقتصر على عصر بعينه ، بل ذكر المشاهير الى أيامه ، وأوضح عنهم كثيراً . ويسع أن يستخلص منه جماعة .

٣) بغية الوعاة . للسيوطي . ولا يخلو من التعرض للغويين لما يخص العهود العباسية بل لم يترك المشاهير من هذا العهد ، ولم يقتصر على من في العراق ، فكان عاماً ، وصالحاً أن يكون من أجلّ المصادر التاريخية لما يهم موضوعنا .

وهناك مؤلفات أخرى دخلت في عداد هذه لم نبق حاجة إلى إيرادها ومن المصادر ما يتناول نفس (كتب اللغة) ، وتاريخ ظهورها بالتوالي . وهذه ذات علاقة بكتب الطبقات فلا نهمل صلتها ، ولا تنكر مكانتها . وكثرة المؤلفات تحتاج الى ترتيب وتتكون منها مواضيع عديدة ، تعدّ من مباحث (التاريخ الأدبي) تارة إلا أنها في الوقت نفسه من أجل مصادر المباحث في اللغة وتاريخها .

وبين هذه ما يتناول (المعاجم) ، أو (الرسائل التعليمية) ، أو (المؤلفات العامة) في خصائص اللغة وفي مطالب خاصة . جاءت كلها مجموعة تبين تاريخ اللغة . وهكذا لا يهمل أمرها ، بل من المهم جداً البحث في كل مطلب منها بخصوصه ، وأن نراعي تاريخ ذلك . ومن ثم تتكون لنا المباحث وتطورها حتى نأتي بها الى آخرها .

ومراجع أخرى تتعلق :

١ — بغريب القرآن الكريم .

٢ — بغريب الحديث الشريف .

٣ — بغريب اللغة بوجه عام .

٤ — شروح الدواوين . وهذه كثيرة وتوضح النقد اللغوي .

٥ — الأمالي والمجاميع الأدبية .

٦ — كتب التفسير .

٧ — شروح كتب الحديث .

وكل هذه تهم اللغة وتاريخها ، وصلاتها بنا ، وما الى ذلك مما أدى الى اشتغال صحيح ، ومن ثم نراعي الآثار فننظر كيف تكاثرت وكيف أمكن تنظيمها لتتيسر لنا منها مجموعات عظيمة . ومثل هذه المراجع لا تهمل بوجه . ولا يصح أن نترك وشأنها . والبحث في ترتيبها وهذا يتعين منه تاريخ اللغة .

وهكذا يقال في المصادر مما يتعلق :

١ — بالمعربات .

٢ — بالمصطلحات اللغوية والأدبية .

وهذه تشمل مباحث يهم أمرها كثيراً ، وتدعو للالتفات . ولا يصح اجمالها بوجه . ولا شك أن الاشتغال في هذه والتعرف لتاريخها يؤدي الى سد ثغرة في اللغة لا يصح التغافل عنها ، أو عدم المبالاة بها بل ان ذكرها يجلو صفحة عظيمة من تاريخ لغتنا ، ويعين مجاري الاشتغال بها في موضوع لا تزال مجامعنا العلمية تكدح فيه ، وربما قصرت موضوعها عليه ، فاهتمت به الاهتمام كله .

وعلى كل حال نرى (تاريخ اللغة) في المدونات بدأ في أول الدولة العباسية ، وتوالت الآثار وهذه في تدقيقها ، وفي مراجعة طبقات اللغويين ، وتطورات اللغة كما تلهمه تلك الآثار ، تؤدي الغرض المطلوب من (تاريخ اللغة) .

أوضح هذا مأقول : ان المعاجم تطورت كثيراً في مادتها من قلة وكثرة ، وفي الترتيب ، وفي النقـــد اللغوي ، واستدراك ما فات ... كل هذه تســـتدعي البحث وتتطلب المعرفة في التكامل والتجدد . فاذا أخذنا صحاح الجوهري وجدناه إصلاحاً لما تقدمه فنال رغبة كبيرة ، وحصلت في أوهام آخذه العلماء بها وجرّت مادته الى مباحث علمية ، فظهرت بعدة

معاجم ، وجل ما عرفنا (كتب الصاغاني) ، والتغيير والتكميـــل ، ومن أجلّها (تكملة الصحاح) فانتهى العهد العباسي بعصوره ، ورأينا التحول كبيراً . وكان الصاغاني من أكابر رجال آخر العهد العباسي .

وهكذا يقال في (غريب القرآن الكريم) ، ومثله (غريب الحديث) ، وهكذا (غريب اللغة) في آثار تناولها العلماء بالبحث ، والتعديل والاصلاح فتكاملت حتى دخلت معاجم اللغة وتكونت منها مادتها أو أضيفت الى ماهو معروف . فكل هذه تحتاج الى أن يتألف منها ومن غيرها (تاريخ اللغة) ، وحوادث إعادة النظر في مدوناتها . فجاءت هـذه التواريخ مهمة في تطور اللغة ...

ونرى غير هذا مباحث (المعربات) تناولها كثيرون ، وذكروا مفرداتها ، وعينوا أن هذا اللفظ غير عربي ، أو انـــه معرب لما كان قبل الاســــلام وبعده ، فكانت المباحث كثيرة الا ان الجواليقي جاء باحصاء نوعاً في كتابه (المعرب) ، ورتب الكلمات على التوالي ، ولكننا نعلم ان الجواليقي وقف الى حدود تاريخ تأليفه . وربما فاته الكثير لما قبل أيامه ، ولعهده أيضاً ، فلم يدقق ثانياً وان تمادت التجربة ، وان اللغة دخلتها بعد ذلك ألفاظ أخرى حتى أواخر العهود العباسية . فهذه لم يتعرض لها العلماء بذكر . جاءت بعده فضلاً عما أغفله ، أو لم يحط به علماً . فكانت هـذه في ضرورة ماسة الى التدوين والترتيب تكملة أو تتمـة لما ذكر ، وتستدعي التمحيص ، وتوالي المباحث ...

وهذه سواء كتب فيها أو لم يكتب ، فانها تحتاج الى هذا التحقيق ، وبيان ما تحتاج فيه الى استدراك ما فات ، وزيادة ما أهمل ، فنرى الضرورة داعية الى المعرفة . فاذا كان وجد تأليف فيها ذكرناه ، والا رجعنا إلى مصادرنا في جمع ما هنالك وعرضه لأنظار علمائنا .

يضاف الى هذا ان الجواليقي في معرباته لم يتعرض للكثير من المادة التي تدخل في موضوعه ومن أهمها الأعلام من أشـخاص ، ومواطن وما ماثل في حين ان كتب اللغة مشحونة بما

عندنا من أمكنة وبقاع ، ومن أعلام أشخاص وضبطها ، فاهمال هذه بالرغم من استعمالها وذكرها لا يرتضيه تاريخ اللغة وما دخله من ألفاظ من نوعها . والنقص واضح في مثل هذه الأمور للتتبع التاريخي وما تجب مراعاته فيه من تدوين نفس اللغة سواء من جهة النقص في مفردات اللغة ، أو تعيين ما دخل من ألفاظ ، وتعيين تاريخ دخولها .

— ومعاودة اللغة أمر ضروري لايصح التهاون به بوجه ، والوقوف على كتاب بعينه جمود ، والعودة أو اعادة التجربة من الأمور الضرورية لمعرفة التاريخ ولمعرفة التكامل المنشود في هذه الأمور .

وهناك (التصحيف والتحريف) في تاريخ اللغة وهـذا تهمنا معرفته كثيراً ، ولا يصح التساهل فيه ، والأغلاط اللغوية في الألفاظ مما نعبر عنه بالتصحيف والتحريف أوالغلط والوهم ، مما حدثت في المفردات وفي التراكيب والاستعمالات من نوع (درة الغواص) وشروحها وما استدرك عليها من تكملة . وكل هذه موضوعها واسع الأطراف ، ويفيدنا في المعرفة للنقد اللغوي ، وفي ما يحقق رغبات المتتبع ، ولا يصح السكوت عليه دون بحث ، وهو في الوقت نفسه يعين تتبعاتنا في مختلف الأزمان ، ومثله مباحث (المثلثات) وغيرها .

وهذا أيضاً صفحة مهمة وعظيمة الفائدة في (تاريخ اللغة) ، تدعو للالتفات وتجعلنا في يقظة مما طرأ على اللغة ، فلم يقبل من كل لغوي ما قال ، ولم تهمل أعماله من كل وجه . وانما المناسبة للحق الجدير بالأخذ وهو شأن العلم الذي لا اعتبار فيه للشخصيات ، وانما هو قبول الحقائق الراهنة .

وأما المصطلحات اللغوية فهـذه جرى استعمالها في أيام الدولة العباسية ، من حين استعمال الألفاظ الخاصة باللغة كعلم ، وبالنحو ، والشعر والبيان وسائر العلوم العربية ولم تستعن بغيرها ، وكلها عربية ، ولم تدع مجالاً لقبول اللفظ الأجنبي ، وانما استعملت ألفاظاً عربية ، وتوسعت في معانيها من طريقين مراعاة (المعنى القريب) ، أو (ارتجال اللفظ العربي) للمعنى المطلوب .

ومن مصادر اللغة (النقد الأدبي) . وهو غير (النقد اللغوي) الخاص ألا أنه متصل باللغة وان النقد الأدبي يتناول استعمال الألفاظ واشتقاقها ، ومحل استعمالها فهو يتعلق بالعلوم العربية وباللغة معاً ، لاسيما البلاغة . وفي هذا ما يعين استعمال الأدباء لهذه اللغة وما يتطرق اليهم من خلل في هذا الاستعمال . ومن ثم نعلم درجة علاقتهم بهذه اللغة .

ومن مصادر اللغة (كتب الوضع) ، وتدخل في صميم اللغة ، وهي نظرة عامة في مدلول ألفاظها ، أو علاقة اللفظ بالمعنى من حيث العموم والخصوص الا ان هذا لم يتوضح في العصور العباسية . بل ان مباحثه استقرت في كتب خاصة لمؤلفين تالين لهذا العهد ، واللغة تدقق تدقيقاً علمياً من هذه الناحية فلا تهمل بوجه .

ولا نريد أن نتوغل في كل المراجع في تعيين تاريخ اللغة بحذافيرها وكفى أن نرجع الى ما ذكر . وهذه ليست بالقليلة . وليس الآن محل توسعها . وانما نرى لكل موضوع بحثه الخاص .

ومن كان جامداً على كتاب بعينه لا يستطيع أن يلتفت إلى مخلدات الأمة ويحمل على فكرة منها ويتناول مباحثها بشمول لمثل هذه الأمور ، ولا يقدر أن يفكر في الاصلاح اللغوي ، وقد فقد القوة ، وحرم المعرفة .

وجل ما نرى (النقد لكتاب) من جراء مخالفته لقواعد اللغة ، أو مفرداتها ، أو تراكيبها . فهؤلاء ليسوا أكثر من أناس ابتدائيين يصححون موضوعاً بالرجوع الى مادة اللغة ، أو قواعدها ، فلم يبدعوا في اللغة ، ولم يلتفتوا الى مفيد نافع ، ولا وجهوا توجيهاً حقاً . فهل بينوا ما فات التدوين في مفردات اللغة للعهود العباسية ، أو ما غاب من معربات ، أو ما أغفله القدماء في العصور العباسية من أغلاط أو تصحيحات ، أو ما أهمل من مصطلحات الى آخر ما هنالك .

وانما نحاول أن ندون في الموضوع ما يلفت الأنظار من تقصيرات لعلنا نبصر بما غلطنا به ، فلا يتكرر ...

هذا وان المعاجم وكتب الطبقات ومادة اللغة كل هذه لا تكفي للتعريف باللغويين وانما

تحتاج الى ادراك تاريخ هؤلاء من أصحاب الآثار اللغوية . ومرجعنا الأخير فيها (كتب التاريخ) فلا ريب أنها الوسيلة الأخيرة لمعرفة هؤلاء . وأزمانهم لادراك التطور .

وموضوع الطبقات تاريخي . كما أن الاتصال بالتاريخ نفسه للمعرفة لا يخص موضوعنا . أما مادة اللغة ، ومعـــاجمها وسائر آثارها وكتب (النقد اللغوي) كل هذه تدعو للاهتمام ، وتستحق النظر وموضوعها داخل ضمن الباحث ، وعند الـكلام عليها نحقق أمر علاقتها بالآثار التاريخية على اختلاف أنواعها مما له صلة به .

ومصادر اللغة لما بعد العهود العباسية تدعو الى التبصر أكثر ، ومنها يعرف تطور العصر ، وله أهمية فى تاريخ اللغة .

٢ — في عهد المغول والتركمان

فاذا تعينت المصادر اللغوية أو المهم منها أيام الدولة العباسية . فلا يـكفي هذا أو يعنينا أن نلتمس غيره دون أن نراعي توالي العصور ؟ أو أن اللغة جمدت فيها ، فهل وقفنا عند العهود العباسية ؟

هذا ما لا أقوله ، بل اللغة العربية كائن حي ، وهي فى حياتها مستمرة ، والأمة العربيـة تمتاز في احتفاظها بلغتها ، فلم تبدل كل يوم لغة ، أو تعدل تعديلاً متوالياً حتى تدوّن ما جرى فيها من التعديل التوالي بحيث أخرجها ذلك عن أصلها كما نشاهد فى لغات الأمم اللاتينية أو الجرمنية أو غيرها . من تركية وفارسية ! ويهمنا ان نتناول هذا الموضوع فنعين مصادر اللغة فيه لما بعد العهود العباسية حتى العهد العثماني أي من سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م الى ســـنة ٩٤١ هـ — ١٥٣٤ م ومصادر لغتنا :

١ — ما كانت عليه اللغة العربية فى سابق عهودها ، والمصادر التي عناها والمباحث التي تصلح أن تكون موضوع البحث ، ولا فرق بين العهدين الا في أن هذا الأخير تالٍ للعهد السابق وان نمضي فى طريق ذلك .

٢ — كتب الطبقات والتاريخ . وهذا العهد تهمنا فيه كثيراً هذه المصادر وأن نتعرف رجال اللغة فيها وما قاموا به من عمل . وطريقتنا أن ننظر في هذا الى عين ما كنا أوردناه وحققناه للعصور السابقة بأن نذكر في هذا العهد (كتب الطبقات) . وهذه تشمل ما يخص الموضوع مثل (البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة) للفيروز آبادي ، و (نزهة الألبّا) لابن جماعة ، و (بغية الوعاة في اللغويين والنحاة) للسيوطي ، وهذه من أجلّ ما هنالك من مصادر والأخير منها لم يعن العصور مفردة ، ولا الأدوار التاريخية ، فجاء ترتيبه على حروف المعجم يفيد للمراجعة لا للتعريف بالعصور .. الا انه عظيم الفائدة . سار سيرة علمية ، راعى فيها جميع الأقطار ، الأمر الذي دعا أن يلخص ويحذف فلم يتوسع في كل قطر ومع هذا يصعب استخلاص ما يخصنا منه ... أو أن نتناول المعاصرين من رجال الأقطار الأخرى . ونحن في عملنا لا نريد إلا ما يعود لقطرنا وهو الحق بنا .

وبعض التواريخ في الرجال يهم كثيراً ، وهي العامة مثل (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجر العسقلاني و (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ، أو في غيرها مثل منتخب المختار [1] في علماء بغداد تأليف أبي المالي محمد بن رافع السلامي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ — ١٣٧٢ م . أو مثل (غاية النهاية) وهذه الأخيرة وان كانت خاصة بالقراء فهي تترجم الكثيرين من (علماء اللغة) ومثلها تاريخ القراء للذهبي ويذكر من عرفوا بالقراءة أو أخذت عنهم من علماء اللغة . وكتاب البدر الطالع للشوكاني ... وكل هذه المؤلفات لا تفيدنا الا من ناحية المراجعة . ويقال فيها ما قيل في كتب الطبقات .

وأما (كتب التاريخ) فانها بصرت بكثيرين في التعرف لهم ، والوقوف على تاريخ وفياتهم وملخص تراجمهم . وهذه كثيرة لا تعدم طائفة منها . فالاستعانة بها مفيدة جداً ، ولا تخلو من اتصال بالمعرفة من طريقها ولا يصح أن تذكر كمصادر للغة . والصعوبة في مباحث اللغة نفسها الا أن توالي الاشتغال يؤدي الى هذه المعرفة ويسوق الى التدوين فيها .

(١) طبع في مطبعة الاهالي — بغداد سنة ١٩٢٨ م .

وأمر آخر وهو أن نلاحظ (كتب اللغة) نفسها ، وما ولّدته من أثر جديد فى أصل اللغة وفى (اللغة التعليمية) ، وفى (المعاجم) و (المؤلفات العامة) . وهكذا ما يتعلق بـ (التعريب) من لغة الكتاب ، ولغة الحديث ، وغريب اللغة بوجه عام ومثل ذلك (المعربات) وما دخل اللغة من ألفاظ (دخيلة) ، و (المصطلحات) اللغوية وما ظهر منها أوجدّ ... وتكون مباحثنا فى مادة اللغة بصورة كاملة ، ومن جراء ماتوجه على اللغويين من تصحيف وتحريف ، أو أوهام .. وهكذا يظهر (النقد اللغوي) وهو الذي نتطلبه فيه من علاقة باللغة .

كل هذه ليست الا تكراراً لما سبق بيانه من حيث النهج ، ولكننا اذا راعينا هذه الطريقة فاننا نلتمس بها ما حدث من تجدد أو تطور وتحول . وأمثلتنا من كتب أخرى غير ما حدث فى عصر سبق ، وان الموضوع واحد الا انه اختلف تلقيه ، وتباين وضعه ، فهو تعديل فى الفكرة ، وقدرة فى اللغة ، وتوالٍ فى الفكرة وزيادة فى الثقافة واضافة لما هو المعروف .

واللغة عندنا لم تكن مصادرها (كتب اللغة) خاصة ، بل الآثار الأدبية تصلح دوماً للاخذ بل انها الوسيلة الوحيدة لاعادة النظر فى المطالب اللغوية ، واتخاذها أصلاً للبحث والمناقشة ، وبسببها يحصل التعديل فى اللغة ، وتوهيم السابقين أو تقصيرهم فيما ذهبوا اليه ، أو دونوا فيه ، فأمكن مناقشتهم الحساب ، ومراعاة ما عندهم ، أو الحكم لما اختلفوا فيه ببيان الراجح من المرجوح ...

فتكون مصادر هذا العهد أصل الآثار الأدبية ، والمخلدات للعصر السابق ، والتحقيق فى وجهات النظر ، فظهرت مؤلفات العصر وآثاره ، وبرزت للعيان واضحة .

ومن ثم نرى معاودة النظر في المادة السابقة ومباحثها ، وهكذا ما جرى من ترتيب ، وما زاد فيها من مادة كما هو الشأن فى العهود الماضية ، وأمر آخر وهو الجمع بين المواطن والأمكنة ، وغريب الكتاب الكريم وغريب الحديث وما جاء فى الرسائل التعليمية والعامة ، فتكون منه موضوع اللغة الجديد ، فأدخلت هذه المطالب فى لغتنا ، وزادت فيها ، بل يصح أن تزاد ...

وبسبب توضيح كل ما جرى عليه العصر من مادة غزيرة ومن ترتيب وأصول تعليمي فى

اللغة بل ان اراده من موضوع أصل المباحث لا من موضوع المصادر وحدها بل أن موضوع (تاريخ لغتنا) بتفصيله المطلوب ، وحالته المشهودة .

ولا نعدم بعض الأمثلة بل نشاهدها بارزة في بعض المؤلفات . فهذا (الفيروز آبادي) كان معيداً في بغداد مدة طويلة ، في المدرسة النظامية اكتسب في خلالها خبرة ، وتوصل الى معرفة كبيرة ، ورأى كتب اللغة عديدة ، والمعاجم لا تحصى كثرة ، وان من أجلّها (كتب الصاغاني) الا أنها صعبة المقتنى والتداول ، فرأى أن يلخص كل (كتب اللغة) مما وصلت يده اليها ، ويظهرها في معجمه (محيطه) ليغني عن تلك المجلدات الضخمة والعديدة التي لا تكفيها أحمال . وكان لهذه الصلة والاختلاط أثرهما الكبير في نشوء الفكرة وتحقيقها ...

أظهر أثره الخالد ، وفيه وهّم الصحاح مع اعترافه بفضله ، ولا ينكر أنه مال الى ما عند الصاغاني فاتخذه مادته ... وهكذا مضى في طريقه ، وحاول أن يحيط بكل مادة اللغة من معربات ومصطلحات علمية وكان عليه ان لا يدخلها لانها ليست من اللغة وأدخل أمكنة وبقاعاً ... وهو في الوقت نفسه لم يخل من نقد وتمحيص . فمثل هذه ليست مما حدث في عهود المغول والتركمان بل هناك مباحث لغوية أخرى .

وجل أملنا أن نظهر ما حدث من تجدد ، وما جدّ من مطالب . ولم نر من لغويينا من أظهر شيئاً من ذلك وقد طال انتظارنا ، وصعب أمرنا ، ولم يبق الا أن نتناول الموضوع بأنفسنا .

ومصادر عهدنا كما قلت (الآثار اللغوية) . وعلاقتها بالعهود السابقة مشهودة ، وهذه تعين مقدار العمل اللغوي كما في القاموس المحيط ، وكتب (التهذيب التعليمية) . وفي هذا العهد ظهرت أوضح ، وأن مؤلفات هذا العهد صارت متممة العصور ، فخدمت المادة التعليمية مثل نظم (كفاية التحفظ في اللغة) للاجدابي ، فجاء استظهارها سهلاً وحفظها يسيراً . وهكذا (الأسدية في اللغة) نظمت أسماء الأسد ...

ولو عددنا ما هنالك من آثار . لطال الأمر وعلمنا أنها تجديد فى العهد السابق ولكن المطلوب بيان أن مصادرنا فى هذا العهد أكثر ما تعوّل عليه (الآثار اللغوية) ومن تدقيقها يظهر التحول والتجدد الذي أحدثته والأمل أن تظهر كل آثار العصر ليكون التدقيق أوسع نطاقاً ، وأجل معرفة .

ومن هذه الأمثلة يظهر أن مادة العصر غزيرة . ولكن رجال لغتنا يريدون أن تمشي هذه الآثار من أمامهم ، وتأتيهم الى محل مطالعتهم ، وتقرر لهم ما يكتبون ليقوموا حينئذ بالمهمة .

اننا في هذه الحالة نريد أن نعلم (مخلفات العصر) . وكيف نعلمها ولم نعمل لاحيائها وكيف تكون المعرفة وهي بعيدة عنا ، ولم نبذل أي جهد فى جلبها من الخزائن الأخرى التي أمالتها الرغبة العلمية الى الأقطار ؟

وبهذا حرمنا من رجال أدبنا ، وأصحاب التوجيه فينا وذلك لأمرين :

١ — جلب الآثار البعيدة عنا وهي من مخلفاتنا . وكيف يستطيع معرفتها من كان جاهلاً بها ، وبتاريخ الأدب ، وهل نتطلب من مثل هؤلاء العمل لمثل هذه النقلة الكبيرة فى توسيع نطاق المعرفة اللغوية ؟

٢ — احياء الآثار اللغوية . وهذه نحن صفر اليدين منها ، فلم يستطع من يتبجح بالتوجيه أن يحيي أثراً واحداً ليقال إنه خدم اللغة فى توجيهه . وهذا مطلب عسير على من لم تكن له المعرفة التاريخية بالأدب ومجاريه واللغة وأوضاعها .

والأمة تريد أن يظهر نتاج العمل . ولا تنظر الى الأقوال الفارغة . وأدب الأمة تابع للمعرفة . فالجهل بذلك ، والعجز عن القيام يدعو إلى حرمان الأمة مع انهـــا راغبة فى هذه المعرفة ، متطلبة لها .

والعمل للثقافة اللغوية وغيرها لا يحتاج الى أدلة ، وأن تاريخ المعرفة يبصر بالمعرفة الحقة وما يتطلبه التجدد الأمي ، فلا نغفل من هذا ولا ذاك .

والعمل جل ما نتطلبـــه « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . قالوا كثيراً ، وسمعنا أمداً ونحن فى حاجة اليوم أن ننطق بالصواب لخير الأمة وان نعمل . وإلا فالسكوت خير بل يجب أن نسكت من لم ينطق بالصواب ولم يعمل لصالح الأمة ، وقد قال الكتاب الكريم فى حق كثيرين : (وان يقولوا تسمع لقولهم) بل نريد أن لا نسمع لقولهم .

عباس العزاوي الحامي